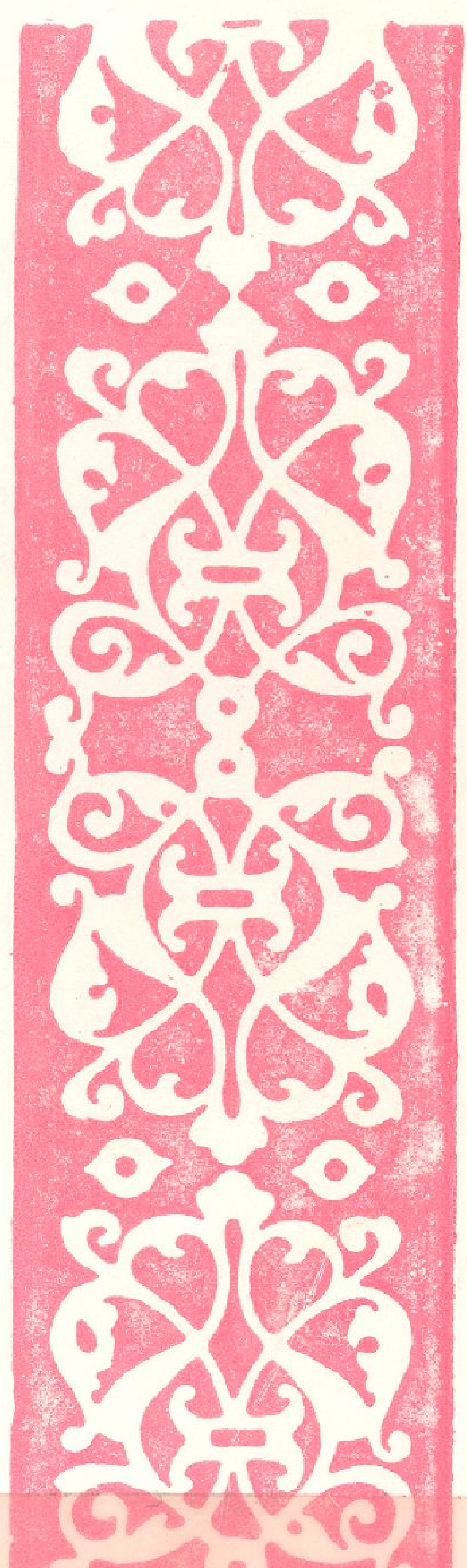


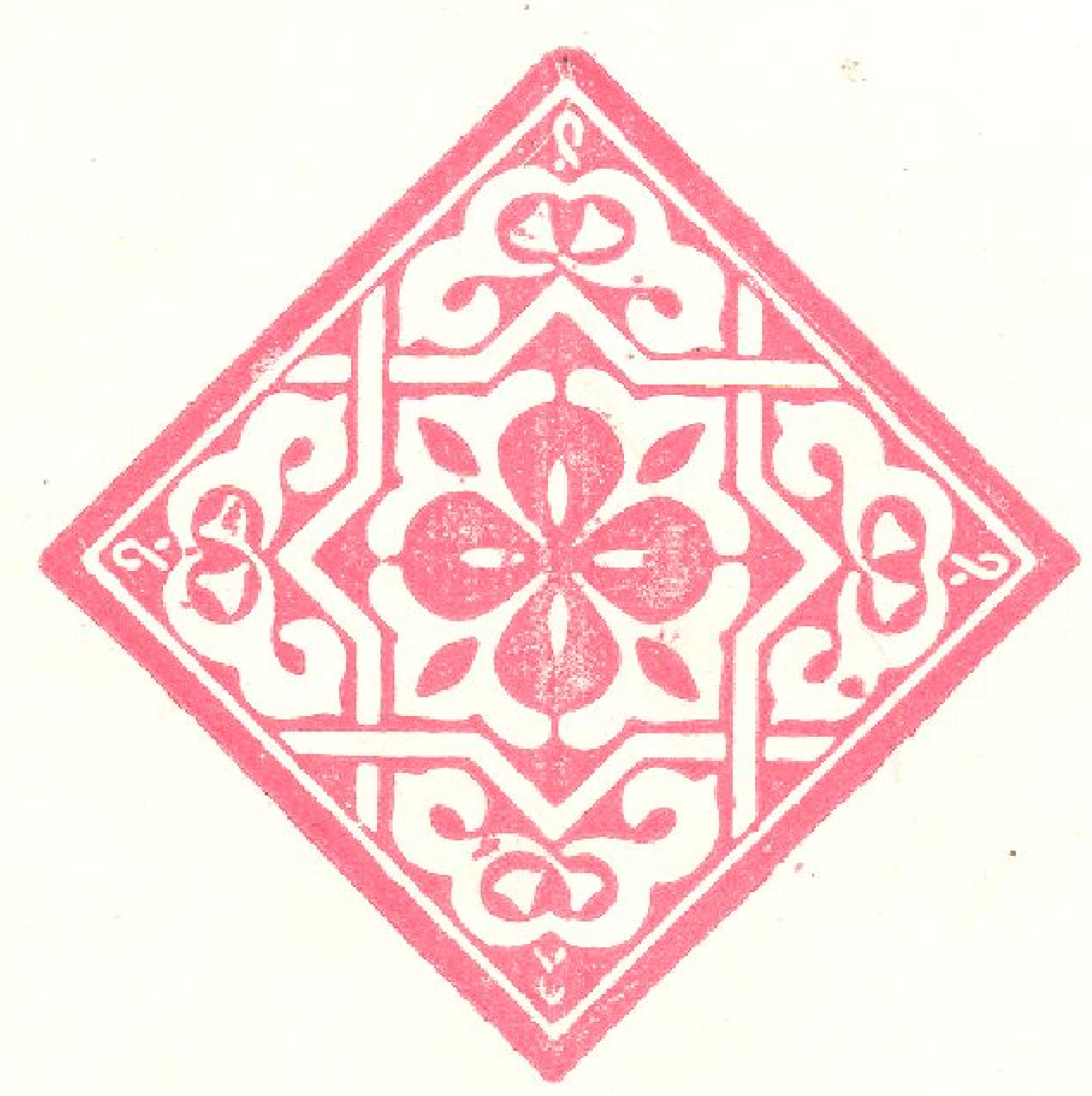
الدكتور محمد البهي

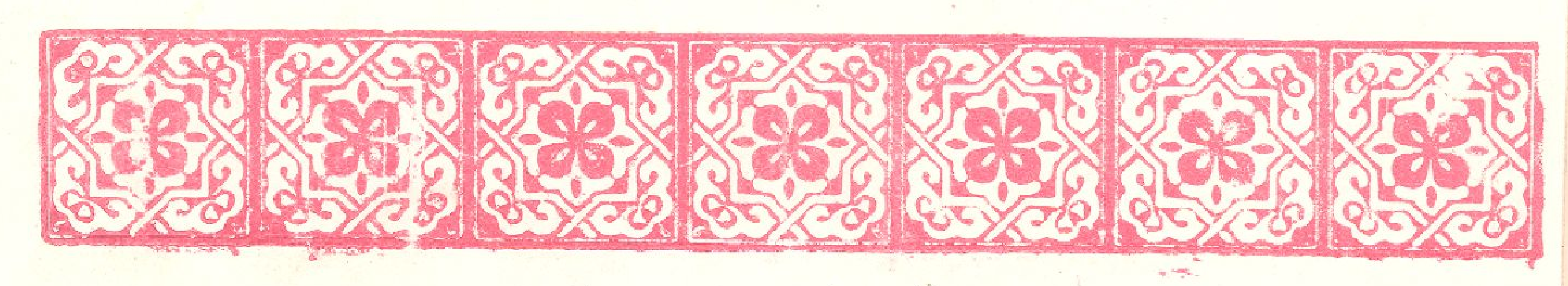


الإسلام

دعوة .. وليس ثورة







يطلب من : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠



الدكتور محمد البهي

الإسلام دعوة .. وليس ثورة

الناشر: مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت: ٩٣٢٤٧٠ ،

الطبعة الثانية

شعبان سنة ١٤٠١ هـ - يونيه سنة ١٩٨١ م

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى - ميدان لاظوغلى
القاهرة - تليفون ٣٠٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

خصائص الثورة

الثورة ـ كما يؤخذ من واقع الثورات التى تمت فى التاريخ القريب للمجتمعات البشرية ـ هى انقلاب مفاجىء عن طريق القوة ، وتغيير كلى للنظام الاجتماعى القائم .. هى اطاحة بصورة معينة من الحكومة ، أو بنظام اجتماعى خاص ، على أن يحل محل الحكومة : حكومة أخرى ، أو يحل محل النظام الاجتماعى نظام آخر .

وفى كل ثورة تعمل لتنفيذها قوى كانت مكبوتة حتى الآن . وكلما كانت الثورة عنيفة كلما دل ذلك على شدة القوى المضادة لها . وتطور كل ثورة وظهورها يخضع لقانون التفوق بين القوى المتقابلة .

والثورة هى ضد التطور

بمعنى التغيير التدريجى . وأهم الثورات التى يؤخذ منها هذا المفهوم : الثورة الانجليزية سنة ١٦٨٨ .. والثورة الامريكية سنة ١٧٧٥ .. والثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .. والثورة الصينية سنة ١٩١١ .. والثورة الروسية سنة ١٩١٧ .

***

الحرص على الالزام .. والتضحية بحرية الافراد :

وخصائص الثورة كثيرة . منها الحرص على الزام الافراد فى المجتمع بقبولها .. على معنى : أنه ليس للافراد

الخيار فى رفضها .. ليست لآرائهم قيمة فى التغيير الثورى ، فى وقوعه ، أو بعد وقوعه ، اذ طالما هى أمر مفاجىء فليست هناك فرصة لتقييمها قبل الوقوع ، من جانب الافراد الذين لم يشاركوا فيها . وبعد وقوعها تصبح أمرا لا مناص منه . وكل رأى معارض لها بعد الوقوع يشكل ما يسمى : « بالثورة المضادة » . ولكبت الآراء المعارضة تنشىء الثورة ما يسمى : « بمحكمة الثورة » أو « محكمة الشعب » لجزاء المعارضين جزاء استثنائيا .

وتضحى كذلك بحرية الافراد فى سبيل استمرارها ، بالرقابة على النشر ووسائل الاعلام . وربما تأخذ بأسلوب الارهاب والاعتقال ، من أجل ما يسمى بحفظ النظام . وقد تسرف فى الكبت للمعارضة ، كما تسرف فى تتبع من تسميهم بأعداء الثورة .

وجو الثورة على أية حال ليس جوا طبيعياً ، يعيش فيه الانسان كانسان، مستمتعا بخصائصه البشرية . وهى خصائص الحرية الفردية : فى القراءة .. والكتابة .. والحركة .. والاجتماع .. والحزبية .. الخ .

* * *

التغيير الجذرى :

ومن خصائص الثورة أيضا : التغيير الجذرى فى الأوضاع الاجتماعية دفعة واحدة . فالثورة الفرنسية قامت ضد الملكية ولتغيير الوضع الاجتماعى للنبلاء ورجال الكنيسة ، وتأسيس الجمهورية .. والثورة الروسية قامت ضد القيصرية ، ولتأسيس نظام اجتماعى يقوم على تحريم الملكية الفردية فى الاقتصاد . وتمكين الطبقة العمالية وحدها من الحكم .

وتعتمد أية ثورة فى التغيير الجذرى على القوة ، باسم القانون • والقانون يصور ارادة القائمين وحدهم بالثورة : فى التغيير • والحكم •• والاستقرار • وارادة القائمين بالثورة قد تستهدف مصلحة خاصة ، مغطاة باسم المصلحة العامة • والمصلحة الخاصة هى مصلحة الحاكم ومعاونيه •

وعنصر المفاجأة اذا أبعد التقييم الموضوعى لأهداف الثورة، وأفسح مجالا للالزام الفورى بها ، فان التغيير الجذرى دفعة واحدة للوضع الاجتماعى لا يتيح كذلك فرصة لتكوين العادات الجديدة ، واحلالها محل العادات والتقاليد التى كانت سائدة •

ومن هنا اذا تخلف الاقتناع الشخصى بقبول أهداف الثورة ــ وهو ذلك الاقتناع الذى يتم على أساس التقييم الموضوعى ـ وسقط كذلك معه الزمن الذى يحتاجه تكوين عادة جديدة ، بدل أخرى فى نفس المواطن : فان وجود التغيير الثورى عندئذ غير مستقر ، ويرتبط بقاؤه فقط ببقاء القوة المنفذة له فى مستوى معين لها • وهو مستوى القدرة على التحرك لكبت كل ما يبرز المعارضة ضدها •

ومن القول المعرى عن الواقع : أن يكون هنا حديث عن الايمان بالثورة وأهدافها بين أولئكم الذين لم يشاركوا فى تنفيذها • وهم الكثرة العديدة من المواطنين •• هم المواطنون جميعا عدا القلة التى باشرت التنفيذ • والصوت من غير هذه القلة الذى يرتفع بالتأييد آنئذ هو صوت المنافقين والمحترفين • بدليل أنه لو قامت ثورة مضادة ونجحت فى اعادة الوضع الى ما كان عليه ، لما رأى شاهد معالم : أنه كانت هنا الى وقت قريب : « ثورة » •• وكان هنا مؤيدون لرجال

الثورة ، ممن عداهم • لا لأن أصحاب الثورة المضادة قاموا بالكبت والارهاب لأعدائهم ومواليهم • ولكن لأن أثر هؤلاء الاعداء والموالين كان هامشيا ، لم يصل بعد الى العمق الذى يترسب فيه الايمان •

وسقوط الايمان فى عمل الانسان يبعد عنه الصلابة والثبات ، والديمومة • وان كان قد يكتسب بفعل القوة المستمرة مع الزمن الطويل : بعض الانصار والاتباع من الجيل الذى ينشأ ويربى فى جو الثورة • وهو ذلك الجو الذى تحدد فيه المنافذ ، والوسائل ، والطرق التى تستخدم من الثورة لتنشئة جيلها وتربيته •

* * *

التأثر بالبيئة المحلية :

والثورات وان كانت تشترك جميعها فى عنصر المفاجأة ، وفى التغيير الجذرى للوضع القائم ، وفى اتخاذها وسائل غير انسانية ضد أعدائها ، من أجل تأمين الثورة وتثبيتها : فان هدفها كذلك محدود بالبيئة المحلية التى تنشأ فيها • فالثورة الفرنسية استهدفت القضاء على طبقة اجتماعية معينة ، وهى طبقة الأشراف فى البيئة الفرنسية • وعلى معاونيهم من رجال الكنيسة • وكذلك استهدفت الثورة الروسية القضاء على القياصرة ومن كان يساعدهم من رجال الدين • بينما استهدفت الثورة الأمريكية ابعاد الاستعمار الانجليزى وتحرير الأرض الامريكية من الاحتلال الاجنبى • فوضع البيئة المحلية هو الذى يحدد الهدف الاول للثورة ، وان كان صوتها عندما يرتفع ينادى بتحقيق معنى انسانى عام • وهو الحرية مثلا ، أو العدل

الاجتماعى ، أو تكافؤ الفرص •• وغير ذلك من القيم الانسانية العامة ، التى لا تختص ببيئة دون أخرى • ولكن ذلك المعنى الانسانى العام الذى يرتفع به نداء الثورة يظل شعارا • على معنى : أن أية ثورة لا تعنى بتحقيقه فى مكان آخر ولا فى بيئة اخرى ، غير المكان وغير البيئة التى قامت فيها • فأبناء الثورة الفرنسية كانوا أعداء : الحرية ، والمساواة ، والاخاء • التى هى شعار ثورتهم ، عندما كانوا يمارسون الاحتلال لمستعمراتهم • والماركسيون اللينينيون فى الاتحاد السوفييتى ليسوا أعداء العدالة الاجتماعية فقط ، ولكنهم مع ذلك أعداء الحرية وأعداء كل معنى انسانى فى بلادهم وفى البلاد الاخرى التى استولوا عليها فى الحرب العالمية الثانية ، أو التى حولوا نظام الحكم فيها الى نظام ماركسى فى افريقيا وآسيا • والامريكان فى فيتنام فى القسوة فى الحرب التى شنوها هناك كانوا أشد من الاحتلال الانجليزى عند مباشرته السيطرة فى الولايات الامريكية المختلفة •

والثورة تتميز الآن بهذه الخصائص :

اولا : انها انقلاب مفاجىء •

ثانيا : انها تغيير جذرى للوضع الاجتماعى القائم •

ثالثا : انها تكره على قبول أهدافها ، وقد تتخذ وسائل غير انسانية فى تثبيت أمرها •

رابعا : أن هدفها محلى فى الدرجة الاولى ، ومرتبط بالبيئة التى قامت فيها •

***

دعوة الإسلام

هل اتخذت دعوة الاسلام طريق الثورة ؟

وهل لها خصائصها ؟

عالمية الدعوة الاسلامية :

ان دعوة الاسلام هى دعوة الى الانسانية ٠٠ دعوة الى المستوى الانسانى فى سلوك الافراد ، وفى الترابط فيما بينهم ، وفى تعامل بعضهم مع بعض ٠

هى دعوة الى التحول من وضع اجتماعى قائم ٠٠ الى وضع آخر مرجو ومقابل له ٠٠ هى دعوة الى الانتقال من الأنانية والمنفعية المادية ٠٠ الى المعنى الجماعى والمصلحة العامة هى دعوة الى ترك خصائص المادية ، والأخذ بالقيم الانسانية ٠٠

انها نشأت فى مكة ، ولكنها لم تكن عربية ٠ أى لم تكن خاصة بالعرب ٠٠ وانما المكيون كانوا أول تجربة تقوم فيها ، على أساس أنهم مجموعة من الناس ساد بينهم الاتجاه المادى فى سلوكهم وتعاملهم ، كما ساد هذا الاتجاه نفسه : شبه الجزيرة العربية ٠٠ وامبراطورية الفرس فى الشرق ٠٠ وامبراطورية الرومان فى الشمال والغرب ٠٠ أى كما ساد هذا الاتجاه العالم كله فى ذلك الوقت ٠

فهى دعوة قامت لتواجه هذا الاتجاه ، وتدعو الى التحول عنه ٠٠ الى ما يسمى بالاتجاه الانسانى أو الاسلامى ٠ وبهذا الاعتبار هى دعوة عامة للبشرية كلها ٠ ويوم دخلت فارس بعد

شبه الجزيرة ، ووصلت الى الشام وبيت المقدس ثم الى جميع أنحـاء الامبراطوريتين القـائمتين فى ذلك الوقت : امبراطورية الفرس ، والرومان : لم تكن غازية • وانما كانت فى مسيرها الطبيعى ، لتحقيق القيم الانسانية التى حملتها أول لحظة ، ولاحلالها مكان الجاهلية أو المادية السائدة فى ذلك الوقت •

والجاهلية لا يقصد بها : « اللاحضارة » فى المستوى المادى أو فى القوة المادية • وانما يقصد بهـا : « اللاانسانية » وطغيان الأنانية فى السلوك والمعاملات • وهو المعنى الذى يقصد اليوم من « المادية » • وقد كانت المادية أو الجاهلية هى الشائعة فى مجتمعات ما قبل الرسالة على وجه هـذه الارض •

ويوم أن وقع الاختيار على « يثرب » للهجرة بالدعـوة الاسلامية ، وقام فيها المجتمع الاسلامى ، لم يكن طابع هذا المجتمع من وحى بيئة « يثرب » • وانما هو مجتمع انسانى يستهدف القيم الانسانية العليا فى الترابط بين أفراده ، وفى العلاقة بينه وبين ما عداه فى أى مكان ، وفى أى زمن • وما عداه هو ذلك المجتمع اللاانسانى ، أو المجتمع الجـاهلى ، أو المادى • ومجتمع « يثرب » اذن هو التجربة الاولى للمجتمع الانسانى أو الاسلامى • وتتكرر هذه التجربة فى مجتمعات أخرى كلما نجحت الدعوة الى القيم الانسانية العليا فى أى وقت ، وفى أية بقعة من بقاع العالم •

ومن هنا كانت الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، وليست محلية بيئية • ونزول القرآن باللغة العربية ، لأنها كانت لغة

التجربة الاولى لقيام المجتمع الانساني ، على أنقاض المجتمع المادى أو الجاهلى • كما كانت مكة هى المكان الاول لهذه التجربة • ولا يعنى نزوله باللغة العربية : أن الدعوة الاسلامية كانت للعرب وحدهم •

ويخطىء من يفهم : أن اللغة العربية التى نزل بهـــا القرآن •• أو أن مكة وهى المكان الاول للدعوة الاسلامية •• هذه ، أو تلك تحد من عالمية هذه الدعوة • فالطابع العالمى لها مستخلص من المبادىء العامة التى تدعو لها • وهى مبادىء تخص الطبيعة البشرية ، من حيث هى طبيعة بشرية : فى أى مكان ، وفى أى جيل من الاجيال • واعتبار عالميتها مرهون فقط بملاءمة مبادئها لطبيعة الانسان ، أى انسان ، وليس بشىء آخر وراءها •

وعالمية الدعوة الاسلامية اذن تجعلها مميزة تماما عن محلية « الثورة » • حتى لو انتقلت الثورة من مكان الى آخر ، ومن شعب الى شعب مختلف عن شعب الثورة • لأن مبادىء الثورة ذاتها تعبير عن عوامل البيئة التى وقعت فيهـــا ، وليست مستخلصة من الطبيعة البشرية كطبيعة بشرية لها خصائصها التى تميزها ، والتى هى لها فى أى مكان ، وفى أى وقت •

وفى عالمية الدعوة الاسلامية يقول الله تعالى :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) ••

---

(١) سبأ : ٢٨

ويقول كذلك :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر
أن الأرض يرثها عبادى الصالحون •
ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين •
وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (١) •

*** * ***

التزام المؤمنين بهـا :

والدعوة الاسلامية ، بعد ذلك ، ليست مفاجئة •• وليست ملزمة فى الوقت نفسه • هى تعـرض •• وتعطى الوقت والفرصة •• ثم تترك الخيار فى القبول أو الرفض ، لمن يقبل أو يرفض • تحترم مشيئة الانسان ، وتوفر لهذه المشيئة الجو المناسب ، بابعاد كل عامل للاكراه من قريب أو بعيد ، مباشر أو غير مباشر •

فالاسلام يأمر رسوله ، عليه الصلاة والسلام بأن يعرض دعوته لله وحده ، ويعلن : أنه بعيد هو عن الايمان بمصدر المادية أو الجاهلية ، وهو الشرق ، اذ يطلب اليه أن يصرح فى غير سرية ، وفى غير ابهام أو لبس :

« قل هذه سبيلى أدعوا الى الله ، على بصيرة انا ومن اتبعنى وسبحان الله وما انا من المشركين » (٢) •

---

(١) الانبياء : ١٠٥ ــ ١٠٧
(٢) يوسف : ١٠٨

كما يطلب اليه أيضا : أن يعرض الحق فى ذاته ، وهو ما جاء اليه من ربه ، ويترك الناس أحرارا وأصحاب مشيئة فى القبول ، والرفض له :

« وقل الحق من ربكم ،

فمن شاء فليؤمن

ومن شاء فليكفر » (١) .

كما يأمره أن يعلن الناس جميعا : أنه فى رسالته ، التى يدعو اليها ، وهى رسالة الوحدة فى الالوهية وعدم الشرك : لا يملك نفعاً ولا ضرا لأحد .. لا يملك نفعا لمن يؤمن بها .. ولا يملك ضرا لمن يكفر بها . وبذلك يبعد صورة من صور الاكراه على القبول . وهى صورة الاغراء ، أو التهديد .

« قل انما ادعوا ربى ولا اشرك به أحدا .

قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » (٢) .

ويحدد رسالته تحديدا واضحا فيما يبعدها عن الالزام ، اذ يقول :

« فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ،

ان عليك إلا البلاغ » (٣) .

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الجن : ٢٠ ، ٢١

(٣) الشورى : ٤٨

والله ذاته ـ جل جلاله ـ يعلن فى كتابه : أن رزقه للناس فى الدنيا لا يرتبط بايمان ، ولا بكفر ، فيقول :

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ،

وما كان عطاء ربك محظورا .

انظر كيف فضلنا بعضهم (وهم الكافرون فى الدنيا) **على بعض** (وهم المؤمنون فيها) » (١) .

فعدم ربط العطاء من الله هنا بالايمان ، والكفر برسالة الاسلام فى الدنيا ، بل وتمييزه فى بعض الاحيان : الكافر على المؤمن فى العطاء : يبعد احراج الانسان فى القبول ، أو فى الرفض للايمان بالرسالة .. يبعد عنه الالزام فى قبولها .. فاذا قبلها عندئذ يقبلها ويؤديها ، ملتزما بها من قبل نفسه .

والقرآن اذ يقول :

« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » (٢) ..

بقدر ما يفسح هنا مكانا للالتزام ، بقدر ما يبعد الالزام ، فى مجال الايمان . ليس فقط لأن الالزام أو الاكراه لا يليق بكرامة الانسان ، ولا يتفق مع مسئوليته الشخصية ، ولا مع مشيئته وحريته . بل لأن الايمان ـ وهو أمر نفسى ـ لا يكون له أثره فى النفس ، ولا تنفعل به كذلك ، الا اذا كان عن اقتناع ذاتى » أى الا اذا اطمأن الانسان اليه ورضيت نفسه به .

---

(١) الاسراء : ٢٠ ، ٢١ .   (٢) البقرة : ٢٥٦ .

والملتزم ليس فى حاجة الى قوة خارجة عن ذاته لتنفيذ ما يؤمن به • بل القوة الدافعة للتنفيذ داخل ذاته • هى نفسه التى تحض على التنفيذ ، وتراقبه كذلك • هى الضمير فيها الذى كونه الاقتناع واطمئنان النفس • والملتزم كأنه يخلق من نفسه : حارسا •• وآمرا •• ومنفذا ، لما يؤمن به •

والمجتمع الذى يتكون من الملتزمين بما يؤمنون به:مجتمع يتحرك بذاته نحو الهدف المشترك • وقيادته تشارك فقط فى تحريكه بالأسوة الحسنة فى التطبيق • وفى الوقت نفسه هو مجتمع انسانى • أى يحتفظ بانسانيته فى مستوى الكرامة ، والمسئولية ، والحرية الفردية

ومن احتفاظه بانسانيته فى هذه المستويات كان أمر « الشورى » أمرا أساسيا فى تركيب المجتمع الاسلامى وبنائه • وهى الشورى فى الاسرة •• وفى الجوار •• وفى الولاية العامة • لأنه لا يتصور أن يكون الأفراد فى المجتمع أصحاب مسئوليات شخصية ، وأصحاب حرية ومشيئة فى قبول الايمان ، وملتزمين من أنفسهم بما يؤمنون به ، ولا تكون بين بعضهم بعضا شورى فى شئونهم ومصالحهم العامة •• لا يتصور أن تكون للأفراد حرياتهم فى قبول الايمان ، ثم بعد الايمان والالتزام به تسلب منهم هذه الحريات فى اعطاء المشورة بما يقوى علاقة بعضهم ببعض ، وبقائهم كمجتمع أو أمة عزيزة الجانب على الاعداء ، وصانعة الخير لكل أبنائها •

ولذا جاءت « الشورى » فى تعبيز القرآن الكريم عند طلبها ، كصفة من الصفات الرئيسية التى تكون المؤمنين • وتميزهم عمن عداهم ، فيقول فى وصف المؤمنين :

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ،
وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ،
والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون •
والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة
وأمرهم شورى بينهم
ومما رزقناهم ينفقون » (١) •

فكما وصف المؤمنين هنا بأنهم هم الذين يتوكلون على الله بعد أن يتريثوا فى اتخاذ القــرار ••• ويجتنبون الجرائم الاجتماعية ، والآثام التى تسبب الأذى والضرر للآخرين •• ويعفون عند المقدرة اذا ما غضبوا •• ويستمرون على اقامة الصلاة •• وينفقون فى سبيل التضامن والمصلحة العامة : وصفهم أيضا بأنهم أصحاب شورى ورأى عام متبادل فيما يعود عليهم بالخير أجمعين •

والفقهاء يؤصلون فى أصولهم : أن الحرية الفردية فى الاجتهاد لا يترتب عليها الزام الآخرين بالرأى الذى يرتضيه المجتهد • فرأى المجتهد يلزم به نفسه وحدها •

وليس معنى الحرية الفردية فى الاجتهاد : أن يكون الذى يباشرها غير مؤهل وغير ذى كفاية موثوق بها • وانما معناها : انه طالما لم يكن هناك الزام فى قبول رأى الفرد فكل من يقدر على الاجتهاد له الحق أو الحرية فى مباشرة الاجتهاد •

---

(١) الشورى : ٣٦ ــ ٣٨

وابتعاد الدعوة عن الالزام : أمر تفارق به « الثورة » . وفى الوقت نفسه شأن يجعلها تعبيرا صادقا عن خصيصة الانسانية .

* * *

منهج التدرج فى تطبيق مبادىء :

والدعوة اذ تطلب التحول من وضع اجتماعى مادى أو جاهلى .. الى وضع آخر انسانى مقابل له .. واذ تطلب الانتقال من سلوك غير انسانى معين الى نوع آخر من السلوك الانسانى بديل عنه ، وهو على الضد من سابقه .. واذ تطلب التغيير فى أسس العلاقات بين الناس والافراد ، بأن تكون انسانية ، وليست جاهلية أو مادية .. اذ تطلب هذا التحول ، وهذا الانتقال ، والتغيير ، فانها تأخذ فى كل ذلك بأسلوب التدرج أو التطور . أى لا تأخذ بأسلوب القفز ، والفورية ، والجذرية النافذة .

فطالما تترك الحرية والمشيئة للانسان فى قبول الايمان برسالتها ، لابد أن ترعى الجانب النفسى له كذلك فى سير ايمانه بمبادئها .. لابد أن يكون الانتقال والتحول على مراحل . ومن أجل ذلك لابد أن توجد أولا الجو النفسى الذى ييسر اتمام التحول من مرحلة الى اخرى .

واذا نظرنا الى قول الله تعالى :

« الم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل

فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » (١) .

لاحظنا أن القرآن يحث المؤمنين على السرعة فى الاستجابة الى التحول الى تمام الايمان . ونزلت هذه الآية بعد العهد المكى كله .. أى بعدما مضت عدة سنوات على الدعوة .

كما نلاحظ أن قول الله تعالى بعد ذلك ، معلنا عن اتمام التحول الى الايمان ، فى قوله :

« اليـوم يئس الذين كفروا من دينـكم فلا تخشـوهم واخشون ،

اليوم أكملت لكم دينكم (باتمام نزول الوحى به) ، **وأتممت عليكم نعمتى** (بتمام تحولكم الى الايمان) **ورضيت لكم الاسلام دينـا** »(٢) ..نزل فى يوم عرفة والمؤمنون وقوف به بعد الفتح.. أى نزل وقد اكتملت للمؤمنين قوتهم،وتم الاعتراف بهم من أعدائهم ، وعادوا أحرارا وأسيادا من جديد الى وطن الدعوة الاول ، ولكن مع تميزهم بالايمان والعزة ، والقدرة على رد الاعتداء . وبين نزول الآيتين أيضا عدة سنوات أخرى . وهى الفترة التى مضت بين الضعف والقوة .

واستغراق الدعوة مدة ثلاثة وعشرين عاما ينبىء عن أن رعاية الجانب النفسى فى التحول كان عاملا قويا فى طول المدة . وهى تلك المدة التى يحتاجها عادة : تكوين جيل جديد : يبدأ من الواحد .. الى الآحاد ، والعشرات .. ثم الى المئـات .

---

(١) الحديد : ١٦ . وحديث البخارى : « عن عمر رضى الله عنه انى لأعلم حيث أنزلت . وأين أنزلت .. وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنزلت يوم عرفة ، وانا والله بعرفة » .

(٢) المائدة : ٣

والآلاف · ويبدأ من الضعف ، والذلة ، والسرية ·· الى القوة النسبية ، والعلانية ·· ثم الى القـوة الفعلية النـافذة ، والتحدى الصلب الذى لا يتراجع ·

وقد كان شأن المؤمنين وهم بمكة : يختلف عنه وهم فى المدينة فى السنوات الاولى للمهاجرين مع الانصار · وهم جميعا على عهد الحديبية ، وفتح مكة يختلفون عن أنفسهم ، عن ذى قبل فى العدد ، والقوة ·

وعندما طلب المشركون بمكة من الرسول عليه السلام : أن ينزل القرآن دفعة واحدة فى قول الله تعالى :

«وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة»(١)
حتى يستطيعوا أن يفكروا فى الايمان به ·· كان الجواب من الله فى نفس الآية ، فى قوله تعالى : « **كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلنـاه ترتيلا** » (٢) ·· أى أنزلناه عليك على نحو ما ينزل عليه الآن مفرقا ومرتلا ، لكى يستقر أمره فى نفسك ونفوس المؤمنين بالرسالة ، واستقرار أمره ليس فى حفظه فقط ، وانما فى العمل به وتطبيقه قبل ذلك ، بحيث يعبر العمل به عن التحول المطلوب من المادية ·· الى الانسـانية فى السـلوك والمعاملة ، والمواقف أى بحيث يتكون به وضع نفسى جديد يدفع الى عادات أخرى ، واتجاه آخر فى الحياة ، غير الاتجاه الذى كان سائدا بينهم قبل البعثة · فالمؤمنون بالرسالة اليوم بعد البعثة كانوا بالأمس من الجاهلين بل وبعضهم من زعمائهم كذلك · والتحول النفسى يختلف تماما عن التحول المادى ·

---

(١) الفرقان : ٣٢ (٢) الفرقان : ٣٢

فيمكن فى مجال المادة : الهدم والبناء فى يسر ، وفى وقت قصير • ولكن لا يمكن فى مجال النفس ، وهو مجال الغاء عادات وتقاليد •• ووضع عادات وتقاليد أخرى بديلة عنها : الا بعد ترويض النفوس على الجديد أو المخالف ، واقتناعها به •

وتوضح آية أخرى هذا الجواب على طلب المشركين المكيين: أن ينزل القرآن جملة واحدة ، جاءت فى سورة الاسراء ، فى قول الله تعالى :

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا •

قل آمنوا به أو لا تؤمنوا » (١)

أى أنزلناه مفرقا ، وعلى فترات تطول وتقصر ، حتى يكون هناك تمهل وتريث فى ابلاغه للناس • وبذلك يستطيعون أن يستوعبوه ، وأن يروضوا أنفسهم على الأخذ به، وينتقلوا بذلك من وضع الى آخر • ويقول (٢) الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى فى سورة نوح :

« قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا • فلم يزدهم دعائى الا فرارا • وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا •

ثم انى دعوتهم جهارا •

ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا » (٣) •

---

(١) الاسراء : ١٠٦ ، ١٠٧

(٢) جـ ٢ ص ٤٩٠ طبع الشرفية •

(٣) نوح : ٥ ــ ٩

فان قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا •• ثم دعاهم جهارا •• ثم دعاهم فى السر والعلن ، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفة حتى يصح العطف ؟

« قلت : قد فعل عليه الصلاة والسلام ، كما يفعل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر :

« فى الابتداء بالأهون •

« والترقى فى الأشد •

« فالأشد •

« فافتتح بالناصحة فى السر •

« فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة •

« فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الاسرار والاعلان •

« ومعنى « ثم » : الدلالة على تباعد الأحوال • لأن الجهار أغلظ من الاسرار •• والجمع بين الأمرين أغلظ من افراد أحدهما »

ولذا : ما كان يؤمر به المؤمنون ، كانوا لا يؤمرون به الا بعد ترغيب فيه ، والا بعد أن يتكرر هذا الترغيب المرة بعد الاخرى •• وما كان ينهون عنه ، كان لا يطلب منهم تركه ووضع حد لفعله ، الا بعد أن يتكرر التبغيض فيه ، والتحذير منه • فاذا كان هذا المنهى عنه مما قد يشق الالتزام به على بعض النفوس ، وضع له مخرجا يجمع بين تجنبه من جانب وتخفيف المشقة من جانب آخر على من يصعب عليه الالتزام بتركه فى صدق واخلاص •

فالزكاة مثلا لم يؤمر بها المؤمنون الا فى آخر سورة نزلت : وهى سورة التوبة • وقبل هذه السورة كان القرآن يكرر

الترغيب فى الانفاق فى سبيل الله ، وفى سبيل المحرومين ، وأصحاب القرابة • وذلك لأن المادية أو الجاهلية تحمل على الشح والبخل •• وتدفع الى الأنانية فيما يتصل بالمال خاصة • ففى وصف الجاهلين جاء قوله تعالى :

« **واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا** (الذين لم يتحولوا عن الجاهلية) **للذين آمنوا** (الذين تحولوا عنها الى الانسانية) : **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين** » (١) ••

بينما جاء فى وصف الأبرار من المؤمنين ، قوله :

« **يوفون بالنذر** (أى ما يعدون باخراجه من المال فى سبيل مصلحة عامة يوفون به) **ويخافون يوما كان شره مستطيرا** •

ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا •

انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (٢) •

والزنا من الجرائم الاجتماعية ، ومن العادات المتأصلة والمتفشية فى عهود سيطرة المادية أو الجاهلية فى أى وقت • وتأصله وشيوعه ليس اذن خاصا بعهد ما قبل البعثة المحمدية • وقد نهى عنه القرآن نهيا صريحا وواضحا فى سورة الاسراء فى قوله تعالى :

« **ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا** » (٣) •

---

(١) يس : ٤٧ (٢) الانسان : ٧ ـ ٩

(٣) الاسراء : ٣٢

يصفه بالفاحشة أو بالمستقبح ، تعليلا لتحريمه والنهى عنه • وقبل النهى عنه كان القرآن يكـرر التبغيض فيه ، ويحذر منه • فمرة يجعله من عمـل الشيطان الذى يصرف به الناس عن القيم الانسانية فى الحياة ، فيقول :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشــاء » (١) •

وأخرى يقرنه بجريمتى الشرك ، والقتل ، فيقــول فى وصف عباد الرحمن :

« والذين لا يدعون مع الله الها آخر
ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق
ولا يزنون ،
ومن يفعل ذلك يلق أثاما •
يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » (٢)•

وثالثة يضع مقترف هذه الجريمة : ذكرا ، أو أنثى ، فى مستوى انسانى كريه مبغوض عند الله يتنافى مع الايمان تماما ، فيقول :

« الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة
والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك
وحرم ذلك على المؤمنين » (٣) •

---

(١) البقـرة : ٢٦٨ (٢) الفرقان : ٦٨ ، ٦٩
(٣) النور : ٣

وبجانب التبغيض والتحـذير من جريمة الزنا يدعو المؤمنين الى الاستعانة على تركه والبعد عنه ، بالصلاة والمواظبة عليها ، فيقول :

« اتل ما أوحى اليك من الكتاب

وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »(١)

والزنا فاحشة وفحشاء •

ولأن هذه الجريمة المنكرة متفشية ومتأصلة أيضا فى المجتمع المادى ــ أى مجتمع مادى ــ وقد يصعب على بعض الناس : أن يلتزموا بترك الزنا التزاما صادقا ، لخصوصيات فى طبائعهم البشرية ، كان ترخيص القرآن بتعدد الزوجات فى أحد أسبابه ، حملا على تركه تركا نهائيا ، كما يقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى ، فى كتابه : « الكشاف » : « **وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النسـاء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحـدة** » (٢) •

فيقول : « وقيل كانوا (أى كان المؤمنون) لا يتحرجون من الزنا ، وهم يتحرجون من ولاية اليتامى ، فقيـل : ان خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم من النساء ، ولا تحوموا حول المحرمات » (٣) •• وبناء على هذا الرأى تعتبر رخصة تعدد الزوجات مخرجا من حرج الزنا ، لبشاعته وآثاره الضارة على الانسانية والمجتمع ، ككل •

* * *

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) النسـاء : ٣

(٣) جـ ١ ص ١٨٨ الطبعة الاولى بالمطبعة الشرفية •

والتدرج فى التكليف ـ أو التطور فيه ـ خاصة من خواص الدعوة الاسلامية اذن • وهنا يجب أن نتوقف قليلا عندما يقال: ناسخ •• ومنسوخ ، فى القرآن الكريم ، طالما أن وضع الأمة الاسلامية على امتداد فترة الوحى فى الثلاثة والعشرين عاما : لم يكن ذا مستوى واحد ، فى الضعف والقوة ، والقلة والكثرة والتخفى والعلن ، والاستسلام والتحدى •

ان الناسخ والمنسوخ قد يكون رسالة جديدة ورسالة أخرى سبقتها ، كرسالة القرآن من رسالة التوراة مثلا • وقد جاء القرآن الكريم مشيرا الى ذلك فى قول الله تعالى ، مخاطبا أهل الكتاب من اليهود :

« واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون !•

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (١) ا••

فاليهود ادعوا افتراء الرسول عليه السلام على الله عندما بلغ وحى القرآن الى الناس فى قوله تعالى :

« قل لا أجد فى ما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ،

فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » (٢) ⊡

واحل بذلك الأطعمة كلها ومن بينها ما حرم على اليهود

---

(١) النحل : ١٠١ ، ١٠٢

(٢) الانعام : ١٤٥

من قبل ، الا ما استثنى منها هنا • وبذلك خالفت رسالته ع التوراة ، فيما نقله القرآن عنها هنا ، فى قوله تعالى • بعد هذه الآية :

« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر (١)

ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ،

ذلك جزيناهم ببغيهم ، وانا لصادقون • فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » (٢) •

فالله قد عاقب اليهود بتحريم بعض الاطعمة عليهم ، بسبب ظلمهم واعتداءاتهم وخروجهم عما أمروا به ، كما يصرح القرآن بذلك فى قول الله تعالى :

«فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا •

وأخذهم الربا وقد نهوا عنه

وأكلهم أموال الناس بالباطل ،

وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » (٣) ••

فما جاء فى القرآن من حل الاطعمة كلها ـ ومن بينها ما كان محرما على اليهود ـ الا ما استثنته الآية هنا : يعد ناسخا

---

(١) كل ذى ظفر : ما لم تفرق أصابعه كالابل والانعام ، والحوايا جمع حاوية ، وهى الأمعاء • أو ما اختلط بعظم وهو شحم الالية •

(٢) الانعـام : ١٤٦ ، ١٤٧

(٣) النســاء : ١٦٠ ، ١٦١

لرسالة الله فى التوراة من تحريم بعض الاطعمة على اليهود بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله ، عقابا لهم • والنسخ هنا بين رسالة وأخرى ، من رسالات الرسل لأسباب خاصة •

أما النسخ بين آيات القرآن وأحكامه ، بعضها ببعض : فغير وارد • وما يبدو بين الآيات من مفارقات أحيانا فذلك يرجع الى اختلاف مراحل التحول والانتقال من وضع اجتماعى إلى آخر مقابل له :

فمثلا فى معاملة أسرى الحرب فى غزوة بدر ، منع الفداء فى أول الأمر على عهد الضعف للأمة الإسلامية ، وذلك على نحو ما وجهه سبحانه الى رسوله الكريم ، فى قول الله تعالى :

« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم •

لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١) •

ولكنه أجيز بعد ذلك ، عندما بلغت الامة الاسلامية من القوة مستوى تتحدى به أعداءها • وجاء جوازه فى قوله تعالى :

« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب
حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق
فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ،
ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم

---

(١) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨

ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » (١) ٠

ولا ينبغي أن يقال : ان ما جاء فى سورة محمد من جواز الفداء قد نسخ ما نزل من قبل فى سورة الأنفال من منعه ٠ لأن وضع الأمة الاسلامية لا يثبت عند مستوى واحد ٠٠ لا يثبت عند مستوى القوة الذى بلغته عندما أجيز الفداء لأسرى الحرب ٠ كما لا يثبت عند مستوى الضعف الذى كانت عليه ، عندما منع الفداء من قبل لأسرى « بدر »٠ وانما وضع أية أمة أو مجتمع يتردد دائما بين الضعف ٠٠ والقوة ، فى أجيالها العديدة والمتعاقبة ٠ اذ أوضاع المجتمعات والامم تخضع لقانون الحياة ، وهو : أن القوة تتحول الى الضعف ٠٠ وأن الضعف يتحول الى القوة ان توفرت عوامل الضعف ، أو توفرت عوامل القوة ٠ كما أن اليسر يوصل الى العسر ٠٠ والعسر يوصل الى اليسر : « **فان مع العسر يسرا ٠ ان مع العسر يسرا** » (٢) ٠

فالشىء يخرج من نقيضه ٠٠ وينتهى الى نقيضه ٠ فالحياة تخرج من الموت ٠٠ والموت ينتهى من جديد الى الحياة٠ ولذا فالبعث فى الآخرة وعودة الأموات ليكونوا أحياء فيها ٠ أمر لا يخرج عن طبيعة الوجود ٠ والحديث الشريف الذى يروى عن حذيفة بن اليمان ، عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، خاصا بتغيير المجتمع من وضع الى وضع ، وتردده بين وضعين متقابلين : يصور قانون الحياة البشرية أدق تصوير ٠ فيروى عنه كما جاء فى صحيح مسلم (٣) ، قوله :

---

(١) محمد : ٤ (٢) الشرح : ٥ ، ٦

(٣) جـ١ص٢٤٧ ، المطبعة المصرية بالقاهرة عام ١٣٤٩هـ٠

« قلت يا رسول الله : انا كنا بشر (أى فى جاهلية ومادية) فجاء الله بخير (اذ أصبحنا فى اسلام وانسانية) فنحن فيه • فهل من وراء هذا الخير : شر ؟ •

« قال : نعم •

« قلت : هل وراء ذلك الشر : خير ؟ •

« قال : نعم •

« قلت : فهل وراء ذلك الخير : شر ؟ •

« قال : نعم •

« قلت : كيف ؟ (أى كيف يتحول الوضع للخير الى وضع للشر ؟ •• كيف يتحول المجتمع الانسانى والاسلامى •• الى مجتمع مادى أو جاهلى) •

« قال : يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهداى ، ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم فيهم رجال : قلوبهم قلوب الشياطين ، فى جثمان انس •

« قال (أى حذيفة) قلت : كيف أصنع يا رسول الله ان ادركت ذلك ؟ •

« قال : تسمع وتطيع للأمير • وان ضرب ظهرك ، وأخذ مالك فاسمع وأطع » •

فالرسول عليه الصلاة والسلام يخبر هنا بأن مجتمع المسلمين عندما وصل الى القوة فى روابطه الانسانية وفى ايمانه بالاسلام فى فتح مكة ، لا يبقى على قوته • وانما ستضعف هذه الروابط ، وسيضعف الايمان بالاسلام • وعندئذ يتحول

المجتمع الى مجتمع مادى أو جاهلى • وهذا هو الشر بعد الخير ـ وهذا التحول يكون بفعل أئمة لا يهتدون بهدى الرسول عليه السلام ولا يستنون بسنته فى تطبيق الاسلام ، واتباع أسوته الحسنة • وسيقوم بين هؤلاء الأئمة رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان انس • فاذا قام بين الأئمة دعاة صالحون •• أقوياء فى ايمانهم ، ومخلصون لله وحده فى دعوتهم ، تحول المجتمع من شر وجاهلية •• الى خير واسلام •

وهكذا مجتمع المسلمين دولة بين الخير والشر • أى دولة بين الاسلام والانسانية من جانب •• والجاهلية والمادية من جانب آخر • ويتكرر هذا الوضع •• أو ذاك ، حسب الأئمة الذين يتولون أمره ، الى يوم القيامة •

وكتابنا : « منهج القرآن فى تطوير المجتمع » (١) •• عنى بجانب التدرج فى مراحل الدعوة الاسلامية ، والانتقال من الجاهلية •• الى الاسلام ، أو الانسانية • كما عنى بتوضيح : أن القول الناسخ والمنسوخ فى كتاب الله ، وهو القرآن ، أمر يدفع اليه الاعتقاد بأن المجتمع الاسلامى ، بعد أن أتم الله نعمته على المؤمنين بالتحول الى دين الله ، بعد جاهلية ومادية طاغية : سيظل على وضعه مدى الدهر ، من القوة فى التماسك والايمان • ولذا يعد ما نزل متأخرا فى الوحى : ناسخا لما نزل من قبل ، ان بدا تضارب او تقابل بين النوعين •

ويكفى أن يطلع مسلم على عهد الرسول عليه السلام ، على حديث حذيفة بن اليمان •• ويطلع من جاء بعده على أحداث التاريخ ، ليدرك : أن المجتمع ـ أى مجتمع ـ خاضع للتغيير

---

(١) طبع مكتبة وهبة سنة ١٩٧٩

وأن الأجيال البشرية فى أجيالها المتلاحقة قد يختلف بعضها عن بعض • وعندئذ يتضح : أن سقوط أى مجتمع عن المستوى الانسانى أو الاسلامى •• الى المستوى الجاهلى أو المادى • انما يكون بفعل الامام أو الحاكم الذى لا يهتدى بهدى الله ولا يستن بسنة الرسول عليه لسلام •

والقرآن قد تكفل بتحديد معيار لسقوط المجتمعات البشرية، عندما يقول :

- « **واذا أردنا أن نهلك قرية** (أى مجتمعا) **أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** •

وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ،

وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا » (١) •

فاذا سقط المجتمع من مستواه الاسلامى ، الى المستوى الجاهلى ، فلابد فى سبيل نهضته من جديد الى المستوى الاسلامى : أن يأخذ بمنهج الدعوة • وهو التدرج فى الانتقال والتحول • وعندئذ تكون مراحل الدعوة جميعها لها اعتبارها كحلقات يسلم سابقها الأمر الى لاحقها •

* * *

مسايرتها للطبيعة البشرية :

انها ليست دعوة قائمة على التعسف بالانسان •• ليست دعوة لكبت أية خصيصة من خصائص هذه الطبيعة :

(أ) ليست دعوة لكبت غريزة الملك والاقتناء •• ولا غريزة

---

(١) الأسراء : ١٦ ، ١٧

المعدة نحو الطعام ، ولا غريزة الجنس فى معاشرة النساء ونسل الاولاد . فلا تدعو لتحديد الملكية ، ولا لتحديد انواع الطعام، ولا الى الرهبنة والابتعاد عن النساء وانجاب الاولاد .

هى دعوة لتنظيم غرائز الطبيعة ، ومنع اعتداء اية غريزة منها ، وتجاوز حد الاعتدال فى مباشرتها ..

هى دعوة لعدم الطغيان بملكية المال ، وبعصبية الاولاد ، وبالترف فى الاستمتاع بملذات الحياة الدنيوية :

ففى الوقت الذى جعل فيه الاسلام المال نعمة من الله ، اذ يقول القرآن الكريم : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** » (١) .. وجعله كذلك ، كما جعل الاولاد : زينة الحياة الدنيا ، فيقول سبحانه : « **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** » (٢) .. يحذر من الطغيان عن طريقهما : فيقول : « **واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة وأن الله عنده اجر عظيم** » (٣) .. فجعل الاموال والاولاد زينة الحياة الدنيا ، هو امتنان من الله على الانسان بفضله عليه . وشأن الزينة أن لا يحرم الاستمتاع بها : « **قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** » (٤) .

ولكن مع حل الاستمتاع بزينة الاموال والاولاد ، فان ملكية الانسان للاموال ، ووجود عصبية له من الاولاد ، قد يدفع

---

(١) النحل : ٧١ (٢) الكهف : ٤٦

(٣) الانفال : ٢٨ (٤) الاعراف : ٣٢ .

به الى الطغيان بهما ، أو بأى منهما · ولذا كانت زينتهما منطوية فى الوقت نفسه على فتنة وابتلاء من الله للانسان صاحب المال ، وصاحب العصبية من الاولاد ·

وفى الوقت الذى يبيح فيه الاسلام الزواج بأكثر من واحدة يقيده بحدود العدل ، وعدم الطغيان فيه ، فيقول جل شأنه : **« وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة »** (١) ·· بل ينصح بعدم الزواج لغير القادر على الانفاق عليه ، وبالانتظار حتى يمن الله عليه بالاستطاعة : **« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله »** (٢) ·

وتنظيم هذه الغرائز للطبيعة البشرية أمر ضرورى فى تماسك الأمة ، وفى تجنبها الأضرار التى قد تدفع اليها فوضى هذه الغرائز · اذ الغرائز بطبعها تميل نحو الجنوح ، اذا لم تهذب بهداية الله ، وحكمة الانسان : **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا »** (٣) ·

واستهدفت عبادتنا الصوم ، والزكاة ، بين العبادات الاسلامية على وجه أخص : تهذيب غريزتى الجنس ·· وحب البقاء الفردى المثل فيما يحتاجه بدن الانسان ، والبقاء النوعى المثل فى النسل والاولاد ·

---

(١) النساء : ٣ (٢) النور : ٣٣

(٣) آل عمران : ١٤

(ب) وليست دعوة للحجر على مشيئة الانسان ، وحريته : فى حركة التقدم •• أو حركة الفكر • فتجعل سعى الانسان فى سبيل الرزق مساوقا لأداء عبادة الله : « **يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (١) •

كما تجعل حرية الانسان فى قبول الايمان •• فى أدائه للعبادات كقربى الى الله عن طريق النية المسبقة •• وفى مباشرته مسئوليته فى الحياة •• وفى عقده العقود : شرطا لصحة ايمانه ، ولقبول عبادته ، ولسلامة مباشرته للمسئولية، ولصحة ايجابه أو قبوله لما يتم من عقد بينه وبين غيره •

تجعل « الاجتهاد » : أصلا من أصول الفقه واستنباط الاحكام الشرعية من الحل والحرمة • والاجتهاد عملية فكرية ، وعامل من عوامل تكييف الظروف والأحداث المتجددة فى الأمة الاسلامية ، فى أجيالها المتتابعة •• وتكافىء المجتهد ان أصاب أو أخطأ ، بماله عند الله •

كما تجعله أصلا فى الرأى والشورى ، وفى الحكم بالعدل بين الناس • وتجعل الاختلاف فى الرأى والاتجاه بين المؤمنين ظاهرة طبيعية للاجتهاد ذاته • ولذا : لا تلزم بالرأى الا من قال به اجتهادا ، دون غيره ممن لا يشاركه الرأى ولذا أيضا : لا تمنع من تعدد المذاهب فى الامة • ولكنها تمنع التنازع من أجل الرأى ، والطائفية للمذهب • لأن الاختلاف فى الرأى اذا

---

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠

وصل الى تنازع كان خطر الانقسام فى الأمة قائما · واذا وصل أمر المذاهب الى طوائف كان خطر العصبية البغيضة ، والتعصب الأعمى للمذهب · وهنا قد يصبح المذهب دينا ، وتتحول المذاهب الى أديان يقابل بعضها بعضا :

واذا وصل أمر الحرية فى الرأى الى تنازع ، والى طائفية فيجب طرح الآراء المتنازع فيها والاتجاهات التى سببت الطائفية والرجوع الى نص كتاب الله ، والى ما أثر صحيحا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام : قولا ، وتطبيقا ·

(جـ) وهى دعوة للمستوى الانسانى ، والحضارة الانسانية · تلك الحضارة التى تقوم على الكرامة الانسانية والاعتبار الانسانى وحده فى تقييم الأفراد ، وتمييز بعضهم عن بعض · لا تعرف نسبا ولا شرفا ، ولا مالا ، ولا عصبية فى الاولاد ، عند تقييم الناس بعضهم فى مواجهة بعض :

« **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم** » (١) ··

فتجعل الآية هنا أن أساس التمييز هو المستوى الانسانى وحده، الذى يعبر عنه بالتقوى · والتقوى ليست الا تجنب ما يؤذى ويضر ، وعمل ما يصلح وينفع للفرد وللآخرين · وتلك هى الانسانية فى مستواها المهذب ·

تنهى عن استخفاف الانسان بالانسان ، وتجريده من الاعتبار البشرى بسبب من الاسباب :

---

(١) الحجرات : ١٣

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن

ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » (١)

كما تنهى عن تتبع الانسان للانسان ، وعدم احترام غيبته ، وظنه به السوء :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ،

ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » (٢) ٠

كل ذلك تنهى عنه لكى توفر للفرد حرمته واعتباره البشرى ٠ والمساواة التى يطلبها الاسلام دائما هى المساواة فى هذا الاعتبار وحده ٠ وليست المساواة فى الملك والاقتناء ، أو المساواة فى القدرات والطاقات البشرية ، أو المساواة فى الحياة الاجتماعية والمعيشية ، لأن التفاوت بين الناس فيما يملكون ٠٠ وفى قدراتهم وطاقاتهم الفردية ٠٠ وفى أوضاعهم الاجتماعية : أمر يقتضيه تفاوت الطبائع البشرية فى الاستعدادات الفطرية : **« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » (٣) ٠**

---

(١) الحجرات : ١١ (٢) الحجرات : ١٢

(٣) الزخرف : ٣٢

وهكذا : ان أوصى الاسلام بالمساواة فى الاعتبار البشرى، فانه يقر الفروق الفردية بين الناس التى تنشأ من خصائص الطبيعة الانسانية نفسها فى الأفراد • وبسبب هذه الفروق تختلف مواهب الأفراد : فى السعى ، والعمل ، والنشاط ، كما تختلف فى مستوى الشجاعة ، والاقدام ، وتحدى الصعوبات والمشـاق •

واذ يقر الاسلام هذه الفروق الفردية يقرها فى صورة ابتلاء واختبار وافتتان : بملكية المال •• أو بعصبية الأعداد •• أو بمتع الحياة الدنيا •• أو بالحرمان منهـا : **« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنـا وهم لا يفتنون • ولقـد فتنا الذين من قبلهم ، فليعـلمن الله الذين صـدقوا وليعـلمن الكاذبين » (١) ••**

« انا جعلنا ما على الأرض زينة لهـا لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٢) •

* * *

ان الدعوة للاسلام تأخذ منهج التطور ، وتسلك طريق التدرج • لأنها تستهدف تأمين مراحل التحول وتثبيت العادات الجديدة فى النفوس التى آمنت • كما تستهدف الاقناع والتزام الذات بما تؤمن به • وهذا يتم فى وقت ، وليس على عجل •

ومن الخطأ : أن يسمى الاسلام « ثورة » • لأنه يحارب عادات جاهلية أو مادية ويدعو الى تغييرها • فطريقه بعيدة عن « الانقلاب » وعن « المفاجأة » وعن « الاكراه » والالزام •

---

(١) العنكبوت : ٢ ـ ٣ (٢) الكهف : ٧

وهذه الظواهر الثلاث هى ظواهر « الثورة » • ورسول الله لم يكن ثائرا وانما كان داعيا بقدوته الحسنة أولا ، وبصبره على الأذى والايلام • وصبره ـ بجانب ايمانه القوى ـ كان العامل فى نجاح دعوته • والصابر يستحيل أن يكون « ثائرا » • اذ الصابر يستخدم عنصر الزمن ، بينما الثائر يتجاوز الزمن ويحيله الى لحظات ، والصابر لا يكره غيره ، وانما يتحمل أذاه:
« فاصبر ان وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » (١)

صدق الله العظيم •••

---

(١) الروم : ٦٠

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٢٠٣٦٠٢/٩٨١

الترقيم الدولى x ـ ٢٧ ـ ٧٣٣٢ ـ ٩٧٧